

المادية الجدلية بين العلم و الفلسفة

المقدمة:

المادية مذهب فلسفي قديم يمكن ان نلمس جذوره في اطروحات الفلسفة اليونانية، التي كانت تعبر عن نفسها في صورة مادية ذرية ، وهو ما نجده مع الفيلسوف ديمقريطس والفيلسوف ابيقور، حيث اعتبروا العالم عبارة عن ذرات مادية تتشكل محض الصدفة (بلا غاية) حسب حركة الذرات نفسها.

هذا الاتجاه المادي تم احيائه مع الفيلسوف فيور باخ في القرن الثامن عشر ، اذ يرى ان المادة والحركة تتمان بصورة ميكانيكية متواترة. الا انه ومع المادية الجدلية التي ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر حدث تطور في هذا الاتجاه حيث قدمت تصورا فلسفيا متكاملا عن الوجود والانسان والمجتمع، واتخذت صورة سياسية فيما بعد عبر عن نزعتها الكثير من دول العالم.

وهذا البحث مكرس للتعرف على راي الماديين الجدليين في موضوع المعرفة. ويقوم هذا البحث على خمسة مباحث رئيسية ، مضافا الى المقدمة والخاتمة، التي اتت على بعض النقاط المهمة في الموضوعات التي عرض لها البحث.

م.م محمد علي الحكيم

مركز دراسات الكوفة – جامعة الكوفة

المبحث الاول: الاتجاه المادي في الفكر اليوناني:

تنطوي على مبدأ الخلق والحياة والتغير ، وهو النار، ويصف التغير والتبدل الذي يتضمنه العالم كالتبادل التجاري الذي يجري في الأسواق(٢). إن قول هيرقليطس ان هناك (تبادل بين النار وبين جميع الاشياء انما يعني محاولته كشف جوهر العلاقة بين المبدأ الواحد (النار) وبين تجلياته (كثرة الاشياء) على اساس ان النار تحرك العالم ، فالاحتراق قد يعني كون العالم وحركته وقد يعني فناءه في آن واحد(٣).

وظهر له ان صفحة الوجود هي في تغير مستمر وسيلا ن دائم، واعتبره الحقيقة الوحيدة الدائمة. ويتم هذا التغير حين يصير الشيء الى ضده، وعلى ذلك فهو يعد الاضداد متحدة ببعضها، ويضع قائمة من الاضداد كالنهار والليل والشتاء والصيف والحرب والسلم، ان كل شيء في تغير، فانك لا تستطيع ان تنزل الى النهر مرتين لأنه في كل مرة ستغمرك مياه جديدة، وينتهي الى ان التغير وسيرورة الوجود تتم بشكل لولبي. (فحقيقة الوجود تقوم على اساس من توتر الاضداد، ويتضح هذا بقوله ان المثقاب يتجه في خط لولبي ومستقيم في آن واحد كما تكون البداية والنهاية متصلتين في دائرة واحدة . ويرى هرقليطس ان هذا التغير

استهلت الفلسفة اليونانية فجر حياتها بالبحث في اصل الكون وطبيعته ، وكان ذلك امتدادا طبيعيا لشغف الشعراء الاغريق الذين كانت لهم تصورات اسطورية خصبة في نشأة الكون وعلاقته بالالهة، التي كانت لا تخلو من الايمان بشيء من القانون يحكم سير الحوادث ويضبط نظام الاشياء . واول فيلسوف بحث في اصل الكون وطبيعته هو طاليس، الذي قال ان الماء هو اصل كل شيء ، وتكمن اهمية طاليس باعتباره اول من عبر عن افكاره بعبارات منطقية معقولة ، ولم يلجأ الى تفسير الكون من خلال الاساطير والخرافات، ولا بالقوى الخفية والالهة، بل على اساس عقلي علمي معلل، يرتبط فيه المعلول بالعلة ارتباطا وثيقا. (١)

ويعد هيرقليطس من الفلاسفة الأوائل الذين ذهبوا الى تفسير الوجود تفسيراً مادياً، حيث ذهب الى ان العالم وهو واحد للجميع ، وهو كائن منذ الازل والى الابد عبارة عن نارا حية تشتعل وتخبو بحساب، فمبدأ الاشياء كلها ومنتهائها ليس مخلوقا من قبل اله او بشر، وانما هو مادة

- الدائم وهذا الصراع القائم بين الاضداد يحكمه قانون ازلي واثنالاف خفي هو ما يسميه اللوغوس. واللوغوس حين يرد في مثل هذا السياق يفيد معاني العقل والمقياس الذي يسري على الاضداد المتتالية التي تتوالى في الزمان . وهو الذي يسميه احياناً زيوس، وهذا اللوغوس ليس متعسفا كأهمة الميثولوجيا، ولكنه عقل وبشعاع منه ندرك النار الالهية وتتصل بها(٤). وفي اقوال هرقلطس في الاخذ بمبدأ التناقض وصراع الاضداد ما يدعم النظرة الجدلية ، كقوله:
- (٥)
- كل شيء موجود وغير موجود ، لان كل شيء في سيلان دائم.
- انك لا تستطيع النزول الى النهر مرتين، لان مياهها جديدة تنساب فيه باستمرار.
- ينبغي ان نعرف ان الحرب هي الحال السائدة وان الصراع عدل.
- ان التخالف يجلب الائتلاف.
- النهار والليل والشتاء والصيف والحرب والسلم والجوع والشبع متصله، ففي طبيعة كل شيء جزء من ضده.
- لذا حظى هرقلطس باهتمام بالغ في العصر الحديث ، خاصة من قبل هيغل والفلاسفة الماركسيين، على اعتبار انه اول لفت الانظار الى حقيقة الصراع والتغير في الوجود، واول من عارض منطق الثبات الصوري واثبت المنطق الحركي الجدلي (الديالكتيكي)، المطابق لحركة الواقع من وجهة نظرهم. فالمنطق الصوري يلتزم بمبدأ عدم التناقض، الذي يرى ان الشيء اما ان يكون (س) او لا(س)، ولكن في منطق هرقلطس فأن الواقع يتضمن الضدين معا . (٦)
- ويرى بروتاجوراس ان الانسان هو مقياس كل شيء، فهو مقياس وجود ما يوجد منها ومقياس لا وجود ما لا يوجد. فالحواس والادراك الحسي هو المعيار الذي يقيس به الفرد وجود الاشياء ، لذا فان كل شخص هو مقياس ما هو حقيقي بالنسبة اليه، فليست هناك من حقيقة غير احساساته وانطباعاته الخاصة عن شيء ما ، فما يبدو حقيقي بالنسبة لي فهو كذلك ، وما يبدو بالنسبة للآخرين فهو حقيقي

المادية الجدلية بين العلم والفلسفة

في الصغر، بحيث لا يمكن رؤيتها بالعين، وهي غير محدودة بالعدد وغير منقسمة، تتحرك في خلاء لا نهائي. فتجتمع الذرات المتشابهة مكونة العناصر الاربعة وجميع الموجودات. (٨)

والذرات (قديمة من حيث ان الوجود لا يخرج من اللاوجود ، وانها دائمة من حيث ان الوجود لا ينتهي الى اللاوجود، وانها متحركة بذاتها. وواحدھا الجوهر الفرد ، فأنها جميعا امتداد فحسب او ملاء غير منقسم، فهي متشابهة بالطبيعة تمام التشابه، وليست لها اية كيفية ولا تمايز بغير الخصائص اللازمة.. وليس الخلاء عدما ، ولكنه امتداد متصل متجانس يفترق عن الملاء بخلوه عن الجسم والمقاومة). (٩)

اما العوالم فهي تتكون من حركة الذرات ، التي لم يعرف مصدرها غير انها اشبه بالدوامة، وتنتج عنها اصطدامات تجتمع فيها الذرات الثقيلة في المركز، فيما تطرد الذرات الخفيفة الى الخارج، هكذا تجتمع الذرات من جراء الحركة مكونة عدد كبير من العوالم منها عالما. والمهم في كل هذا (ان تفسير ديمقريطس لنشأة العالم او العوالم هو

بالنسبة لكل واحد منهم ايضا ، ولست معنيا بشيء اخر غير احساسى الخاص. وهذا الاقرار المطلق بنسبية الحقيقة واختلافها من شخص الى اخر تبعا لإدراكاته الحسية هو ما جعل بروتاجوراس يتوصل الى فكرته الاساسية ، وهي ابطال الحقيقة المطلقة لتحل محلها حقائق متعددة بتعدد الاشخاص وتبدل الاحوال. وما يصدق على المعرفة يصدق على العمل ايضا فالفرد مقياس النفع والضرب، والخير والشر، والعدل والظلم. (٧)

واخذ لوقيبوس بما تظهره التجربة الحسية من وجود ذرات صغيرة معلقة في الهواء، واخذ من جهة اخرى ما قرره الاليون من ان الوجود لا ينشأ عن اللاوجود ، كما ان الوجود غير صائر الى اللاوجود ، وانتهى الى ان الوجود منقسم الى ذرات لا نهاية لها في العدد ، خالدة متحركة في الخلاء، وعندما تجتمع تتكون الاشياء ، وفي انفصالها يحدث الفساد. ويتفق ديمقريطس مع ما ذهب اليه لوقيبوس ، وقد عبر عن ذلك بان الحقيقة تنقسم الى ما اسماه بالوجود (الذرات) واللاوجود وهو (الخلاء). ووصف الذرات بانها اجسام مكونة من جوهر واحد، صلبة متناهية

اختلفت سرعتها، فذلك بسبب تفاوت مقاومة الاوساط التي تجتازها. (١٢)

ويعبر أبيقور عن اتجاه حسي في نظرية المعرفة، فالأحاسيس صادقة بذاتها لأنها تنطلق من الواقع الموضوعي، أما الأخطاء فتنشأ عن تفسير الأحاسيس. ويشرح أبيقور أصل الأحاسيس بطريقة مادية ساذجة، اذ يجد انها تدفق مستمر للجزيئات الدقيقة تراح من سطح الأجسام لتخترق الحواس ومحدثة فيها صوراً لتلك الأشياء. (١٣)

اما الالهة فيؤكد ابيقور انها موجودة، ويجب ان نتصور الالهة على حسب احسن الاشياء الموجودة فينا. فتكون اجسامهم من وجهة نظره غاية في اللطافة، ومتحركة بين العوالم المختلفة بصورة دائمة وبمعزل عنها، فلا يناههم ما ينالنا من اندثار، فهم مخلدون سعداء، ولما كانوا كذلك فهم غير معيون بشؤوننا ولا يكدرون صفوهم بنا، وبالتالي ليسوا محتاجين كما تعتقد العامة الى النذور او تقديم القرابين لطلب مددهم ورضاهم، فكلها خرافات تناقض الفكرة السابقة عنهم، لذا وجب علينا ان نكون مطمئنين من

تفسير ميكانيكي صرف ، ولا مكان فيه لعلة غائية، ومن جهة اخرى فإنه تفسير يجعل سبب التكون سبباً ذاتياً وليس

تحت تأثير علة خارجية). (١٠) فيما يجد ديمقريطس النفس مؤلفة من ذرات ذات جواهر نارية لطيفة واسرع حركة متغلغلة في البدن كله، وهي مبدأ الحياة والحركة في الكائنات، وتكون اوفر عددا في مراكز الاحساس والتفكير. ويمضي ديمقريطس بالمذهب الالهي الى حده الاقصى ، فكما ان النفس ذرية عند ديمقريطس كذلك الالهة مركبة من ذرات اكثر دقة، لذلك كانت اكثر حكمة واطول عمراً، ولكنها غير خالدة، فهي خاضعة ايضا للقانون العام قانون الكون والفساد. (١١)

اما ابيقور فقد احبى المذهب الذري عند لوقيبوس وديمقريطس فالجواهر الفردة موجودة ولو لم تكن منظورة ، وهي ذات اعداد غير متناهية وتؤلف عوالم غير متناهية ، لكل عالم شكله وموجوداته وقتاً ما، ثم يتبدل بانتقال الجواهر من عالم الى اخر. والجواهر متحركة ابداً في خلاء لا متناه ، وعلّة حركتها هي الثقل، اذ تتحرك الجواهر في خط مستقيم من اعلى الى اسفل ، وبسرعة واحدة، فان

المبحث الثاني: الفلسفة المادية في العصر الحديث

اعتقد ديكارت أن دورات الجسيمات هي الشكل الرئيسي لحركة المادة الكونية، وأنها تحدد بناء العالم وأصل الاجرام السماوية. وقد أعطت فرضيته دفعة لتقدم الجدل، على الرغم من أن الحركة عنده كانت لا تزال آلية. وكانت اراء ديكارت في المادة أو الجوهر المتجسد قد قامت على اساس بحوثه الرياضية والفيزيائية، فقد وحد بين المادة والامتداد أو المكان، وافترض أن الامتداد وحده لا يعتمد على أي عنصر ذاتي، وأنه مشروط بالخواص الضرورية للجوهر المتجسد.

لقد آمن ديكارت أن الطبيعة العامة والضرورية للمعرفة الرياضية مستمدة من طبيعة المخ. ومن ثم نسبت قوة خاصة في فعل المعرفة إلى الاستنباط القائم على البديهيات الصادقة المستوعبة بشكل حدسي. وكان لمذهب ديكارت في الصدق المباشر للوعي الذاتي وللأفكار الفطرية ، التي أدرج ضمنها فكرته عن الله وعن الجوهرين الروحاني والجسماني تأثير لاحق على المدارس المثالية، التي تعرضت لهجوم شديد من جانب الفلاسفة الماديين. ومن جهة أخرى

جهتهم وان نفى الخوف عن نفوسنا منهم. لقد كان هذا الخوف عظيما في بلاد اليونان بما توارثوه من اساطير عن عبث القدر بمصائر البشر، فاراد ابيقور ان يرفع عن كاهلهم ذلك الكابوس فأثر نحو العناية والحساب معا. (١٤)

ويقول انجلز في كتابه (جدل الطبيعة) ان الفلاسفة الاغريق من طاليس الى هيراقليطس قد تبنا النظرية المادية ، وان ماديتهم كانت اكثر تقدما من مادية القرن الثامن عشر، لأنها مادية جدلية لا مادية آلية مستمدة من الميكانيكا، والتي اکتفت برد المركب الى اجزائه البسيطة، وظهر قصورها مع ظهور التطورات العلمية في مجال الكيمياء وعلم الحياة، ولكن هذه النظرية تجعل من الاشياء منفصلة عن بعض وثابتة، ووفقا لذلك تكون الاشياء اما موجودة او لا موجودة ، وتتجاهل ترابط الاشياء وتطورها، وبالتالي انتهت الى النظرية الميتافيزيقية المتحجرة، ولهذا استعاد هيغل والمادية الجدلية من بعده النظرية المادية الجدلية للإغريق بدل المادية الالية في تفسير الوجود، ودعوا الى العودة الى التفكير الجدلي لدى هيراقليطس، الذي كان اول من ربط بين الحركة بالتناقض. (١٥)

العقل والطبيعة، بين الذات والآخر، بين الحرية والسلطة، بين المعرفة والإيمان. لذا (كان مشروع هيكل الرئيسي الفلسفي أن يأخذ هذه التناقضات والتوترات ويضعها في سياق وحدة عقلانية شاملة، موجودة في سياقات مختلفة، دعاها (الفكرة المطلقة) أو (المعرفة المطلقة)، وطبقاً لهيكل الخاصة الرئيسية في هذه الوحدة أنها تتطور وتتبدى على شكل تناقضات (Contradiction) وسلب (Negation). تولد التناقض والسلب لهما طبيعة حركية في كل مجال من مجالات الحقيقة- الوعي، التاريخ، الفلسفة، الفن، الطبيعة، المجتمع-، وهذه الجدلية هي ما تؤدي إلى تطوير أعمق حتى الوصول إلى وحدة عقلانية تتضمن تلك التناقضات كمرحلة وأجزاء ثانوية ضمن كل تطوري أشمل. هذا الكل عقلي لأن العقل وحده هو القادر على تفهم كل هذه المراحل والأجزاء الثانوية كخطوات في عملية الإدراك. وهو عقلائي أيضاً لأن النظام التطوري المنطقي الكامن يقبع في أساس وجوه كل نطاقات الواقع والوجود وهو ما يشكل نظام التفكير العقلاني(١٩) .

فإن رأي ديكارت، المادي في جوهره، عن الطبيعة ونظريته في تطور الطبيعة، وعلم النفس الفسيولوجي المادي عنده، قد أثرت جميعاً في النظرة الشاملة للمادية للعالم.(١٦) وقد أثارت سبينوزا - الذي ينزع إلى الوحدة - آراء ديكارت التي قسم فيها الوجود إلى عنصرين نهائيين ، أحدهما تدرج فيه كل تشكيلات المادة، والآخر يندرج تحته جميع أشكال العقل، كما أثاره تفسير ديكارت للعالم كله (عدا الله والنفس) تفسيراً الياً ورياضياً (١٧). فقد قرر سبينوزا أولاً أن إرادة الله وقوانين الطبيعة اسمان يطلقان على حقيقة واحدة، فإن قوانين الطبيعة العامة وأوامر الله الخالدة شيء واحد ، ومن ثم توصل إلى (أن كل الأحداث التي تقع في العالم أن هي إلا نتيجة الية لقوانين الطبيعة الثابتة ، وليست نزوة من نزوات حاكم مطلق يجلس في النجوم، وليست هذه الالية قاصرة على المادة والجسم فقط كما ذهب ديكارت ، فإن سبينوزا يرى أنها تشمل الله والعقل أيضاً . أن العالم جبري ، وليس مقصوداً أو له غرض). (١٨) وبدت الفلسفة الحديثة والثقافة والمجتمع في نظر هيكل مشحونة بالتناقضات، كما هي الحال في التناقضات بين

المادية الجدلية بين العلم والفلسفة

نفسه واقعي). (٢١) من هنا اتسمت فلسفة هيغل بالطابع المثالي.

وقد كان المذهب الطبيعي في دراسة الانسان سمة مميزة لمادية فيور باخ ، فقد نقد فهم هيغل المثالي لجوهر الانسان، وكان هذا النقد النقطة المبدئية في تطوره الفلسفي، وانصب نقده بشكل حاد على الطبيعة المثالية للجدل الهيجلي ، ما أدى إلى نبذه المثالية بوجه عام، ولم يلحظ إنجازها المهم وهو اكتشاف الجدل. وكانت إحدى الخدمات التي أداها فيور باخ للمذهب المادي أنه أكد الرابطة بين المثالية والدين، وفتح هذا الطريق إلى الاستفادة من المضمون العقلي للفلسفة الهيجلية، وساعد في هذا الصدد على تشكيل الماركسية. وكان المضمون الأساسي لفلسفة فيور باخ إعلان المادية والدفاع عنها. وهنا تبدى المذهب الطبيعي في دراسة الانسان في مشكلة جوهر الانسان ومكانته في العالم حيث يوجد في مكان الصدرة، ولكن فيور باخ - إجمالاً - لم يتغلب على الطبيعة التأملية للمادية السابقة على الماركسية، وظل - في فهمه للتاريخ - يتخذ مواقف مثالية كلية. (٢٢)

يتفق هيغل مع القائلين بوحدة الوجود ، (ويرى ان المطلق هو الواقعي بما فيه من روح لا متناه او مثال او عقل كلي او مبدا خالق منظم، وان الطبيعة والفكر حالان له . يظهر الفكر في وقت ما من اوقات تطور الطبيعة، لا انهما وجهان له متوازيان. ويرى انه لأجل فهم الوجود في مبدئه وتسلسل مظاهره، يجب اتباع منهج منطقي يبين هذا التسلسل من اصل واحد (هو القضية) ينقلب الى نقيضه ثم يأتلف مع هذا النقيض ، ويتكرر هذا التطور الثلاثي ما شاءت مظاهر الوجود. أي انه يجب ترك العقل يجري على سليقته هذه ابتداء من اول وابسط المعاني، وهو معنى الوجود. هذا المنهج هو المنطق او الجدل الذي شأنه ان يتأدى من معنى الى معنى ضرورة، بحيث يبدو الفكر وجوديا، ويبدو الوجود الواقعي منطقياً، أي ضروريا ومعقولا ضرورة). (٢٠)

اما التطور كما يراه هيغل ف(هو يتم في قفزات او طفرات تظهر فيها كفاءات جديدة مثل الحياة والوعي .. الخ ، وهو ايضا تطور حتمي صارم يتم طبقا لقوانين الروح ، فليس هناك مجال للصدفة ولا للإرادة الحرة، فكل ما هو واقعي فهو عقلي ، وكل ما هو عقلي فهو في الوقت

المبحث الثالث: التطورات العلمية في العصر الحديث:

وتتجلى المادية بشكل واضح لدى ديدرو -

رئيس تحرير دائرة المعارف الفرنسية- الذي تدرجت كتاباته من المذهب الطبيعي المنكر للعناية الالهية الى الالحادية المادية الزاعمة ان المادة حية بذاتها، وان الاحياء تتطور ابتداء من خلية تحدثها المادة الحية(٢٤). ان اكتشاف الخلية عده الماديين انتصارا لنظريتهم، لانهم اعتبروا ان الخلية هي اللبنة الاساسية لجسم الكائن الحي ، وهي سبب التطور. فالعديد من الأفكار البيولوجية التي جرى طرحها في غضون تلك الفترة ، عارضت بقوة ما كان يعتبره جميع الناس صحيحا، بحيث تطلّب قبول هذه الأفكار ثورة أيديولوجية. ومن بين جميع البيولوجيين، يتحمل تشارلز داروين القدر الأكبر من المسؤولية عن إحداث أكثر التعديلات وأعمقها في النظرة السائدة لدى الناس العاديين. فيما كان لامارك هو اول انسان اثار استنتاجاته العلماء ، فقد عبر عن اراءه في كتابه (الفلسفة الحيوانية) سنة ١٨٠٩م ، وكذلك في كتابه الاخر الذي كان تحت عنوان (التاريخ الطبيعي للحيوانات اللافقرية) عام ١٨١٥م، حيث كشف عن مبدأ جديد يتلخص ان جميع الانواع الحية بما فيها الانسان قد انحدرت

يمكن ان نطلق على الاتجاه المادي في العصر الحديث اسم مادية العلوم الطبيعية ، لأنها كانت تستند بشكل مهم واساسي على نتائج العلوم الطبيعية التي اخذت تتطور تطورا كبيرا. وقد شهد القرن التاسع عشر تزايدا على نطاق واسع في مجال العلوم الطبيعية وتطبيقاتها العملية؛ الامر الذي دفع علماء الطبيعة الى الطموح للإجابة عن مسائل فلسفية تخرج عن نطاق بحوثهم العلمية الطبيعية. وبذلك طغى التفسير المادي على مجمل الجوانب، واصبحت كل الحقائق تفسر تفسيراً مادياً. وسادت هذه النظرة المادية في مجالات يتعدى تفسيرها بالمادة في نظر الفكر المحايد، فقد عرضوا لتفسير الحياة والعقل والشعور والخيرية والشرية والالوهية وغيرها في ضوء المادة وحدها، واصبح الانسان يدرس وكأنه عينة معملية تخضع للملاحظة والتجربة. وقد بدى الزحف المادي واضحا في مؤتمر علماء الطبيعة الذي عقد في المانيا، اذ كشف ان عددا كبيرا من العلماء كان يفكر بهذا الاتجاه.(٢٣)

ويمكن ان نجمل اهم الافكار المستخلصة من النظرية

الدارونية بالأمر التالى (٢٧):

اولا: ، ترفض الداروينية جميع الظواهر والمسببات فوق

الطبيعية ، وتفسر نظرية التطور حسب مبدأ الانتقاء الطبيعي

موضوع التلاؤم والتنوع فى العالم على نحو مادي حصرا.

لقد لفت داروين النظر إلى أن الخلق حسبما جاء فى

النصوص التى تتحدث عن الخلق فى مختلف الثقافات،

تعارض تقريبا كل ناحية من نواحي العالم الطبيعي. فكل

جانب من جوانب (التصميم المدهش) الذى يؤكد

اللاهوتيون الطبيعيون يمكن أن يجد تفسيراً له فى الانتقاء

الطبيعي. وكذلك تكشف النظرة المتأنية أن هذا التصميم

كثيراً ما لا يكون مدهشاً جداً. وقد فسحت نظرية داروين

المجال لتفسيرات علمية بحتة لجميع الظواهر الطبيعية، وأدت

إلى نشوء مذهب الواقعية.

ثانياً: ومن ناحية ثانية ترفض الداروينية فكرة التيبولوجيا

(التنميط) typology. فمنذ زمن فيثاغورس وأفلاطون،

يؤكد المفهوم العام للتنوع فى العالم على ان العالم يتألف من

عدد محدد من الأصناف الطبيعية (ماهيات أو انواع) يشكل

من انواع اخرى، وبذلك لفت الانتباه الى وجود احتمال

بان جميع التغيرات فى العالم العضوي ، وكذلك العالم غير

العضوي ناتجة عن قانون، وليست نتيجة تدخل

اعجازي.(٢٥)

وعلى الرغم من ان آراء لامارك قد لفت انتباه

العلماء الى مسألة التطور فى الكائنات الحية ، من خلال

عملية تدريجية يقوم بها الكائن العضوي للتأقلم مع البيئة

والظروف الجديدة التى تحيط به ،مكتسبة خصائص جديدة

تساعد على الحياة بشكل افضل، وهذه الخصائص تورث

وتظهر انواع جديدة. غير ان دارون رفض فكرة لامارك

حول التحولات التدريجية ، وقرر ان التطورات التى تحدث

لدى الكائنات قائمة على اساس التحول الفجائي او الطفرة

، أى ان التغيرات التى تتعرض لها الكائنات الحية تكون

مفاجئة وبطريقة لا يمكن تفسيرها ، وقد تكون تلك

التغيرات نافعة للحيوان ، وهى تكافح من اجل البقاء، وعلى

هذا تكون الافراد التى تحوز هذه الخصائص افراد منتخبة

للبقاء، وعلى اساس انها باقية فان صفاتها الجديدة ستورث،

ومن ثم تظهر الانواع الجديدة. (٢٦)

حظي بقبول معاصريه؛ إذ إن اللاهوتيين والفلاسفة على حد سواء كانوا يعتبرون الإنسان مخلوقا يسمو فوق الكائنات الحية الأخرى وينفصل عنها. وقد توافق أرسطو وديكارث وكأنت على هذا الرأي بغض النظر عن تباعد تفكيرهم فيما عدا ذلك. إن انطباق نظرية التحدر المشترك على الإنسان حرم هذا الأخير من منزلته السابقة الفريدة.

كما ان هلباخ الذي كان زميلا لمجموعة من العلماء في كتابة دائرة المعارف في مجال الكيمياء ، فقد ذهب في كتابه (نظام الطبيعة) الذي يعد انجيل المذهب المادي، الى انه لا يوجد عدا الذرات المادية شيء الهى او روجي، فلا وجود الا لما هو مادي ، اما ما هو روجي فلا وجود له او هو ليس الا شيئا ماديا دقيقا ، فلا وجود الا للمادة والحركة، وكل الحوادث تسير حسب قوانين طبيعية ، أي قوانين ميكانيكية عليا، وتسري هذه القوانين ايضا على الدولة وعلى المجتمع. (٢٨)

المبحث الرابع: الاتجاه العلمي في المادية الجدلية:

ظهرت المادية الجدلية في القرن التاسع عشر، وهي تعبر عن اتجاهها غير فلسفيا، اذ يؤكد ماركس ان الفلسفة

كل منها طائفة (صنفا). وكان يُعتقد بأن أفراد كل طائفة تكون متماثلة وثابتة، كما تكون واضحة الانفصال عن أفراد الماهيات الأخرى.

ثالثا: جعلت نظرية داروين في الانتقاء الطبيعي أي محاولة لابتغاء الغائية (الغرضية) أمرا لا لزوم له. فمنذ أيام الإغريق وما تلاها ساد اعتقاد شامل بوجود قوة غائية في العالم تقود المسير المتعاضم نحو الكمال. وكان هذا (المسبب النهائي) واحدا من الأسباب التي خصها أرسطو. لقد كان قبول سلم الارتقاء الطبيعي والتفسيرات اللاهوتية الطبيعية شواهد أخرى على رواج الغائية، ولكن الداروينية أطاحت بمثل هذه الاعتبارات.

رابعا: ينفي داروين مذهب الجبرية. كان لابلاس قد تبجح بأن المعرفة الكاملة للعالم الحالي وصيروراته كلها ستمكثه من التنبؤ بالمستقبل حتى اللانهاية. أما داروين فقد قبل مبدأ شمولية العشوائية والمصادفة اساس سيرورة الانتقاء الطبيعي.

خامسا: طور داروين نظرة جديدة للبشرية، وبها يكون قد أوجد مركزية بشرية جديدة. فمن بين جميع مقترحات داروين، تُعد صحة انطباق نظرية التحدر أصعب مقترح

المادية الجدلية بين العلم والفلسفة

الا انه تحول فيما بعد الى المادية الجدلية بعد تعرفه على كتابات الفيلسوف المادي فيور باخ ، وانه اعتبر فيور باخ هو من انقذه من المثالية الهيجلية.

على حين يذهب لينين الى ان تأريخ الفلسفة وتأريخ العمل الاجتماعي يبينان بكل وضوح ان الماركسية ليست مذهبا انعزاليا، قام بمعزل عن الطريق الرئيسي لتطور المدينة العالمية. بل بالعكس، فان عبقرية ماركس كلها تقوم بالضبط في كونه اجاب على الاسئلة التي طرحها الفكر

الانساني التقدمي، وقد ولد مذهبه بوصفه التتمة المباشرة الفورية لمذهب اعظم ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية. ان مذهب ماركس صحيح ومتناسق وكامل ويعطي الناس مفهوما منسجما عن العالم، لا يتفق مع أي ضرب من الاوهام ومع اية رجعية، ومع أي دفاع عن الطغيان البرجوازي. وهو الوريث الشرعي لخير ما ابدعته الانسانية في القرن التاسع عشر: الفلسفة الالمانية، الاقتصاد السياسي الانجليزي، والاشتراكية الفرنسية. (٣٠)

ولما كانت الفلسفة لدى الماديين الجدليين ضرورة لأغراض عملية ، لأنها تتيح لهم فهم العالم من جهة، ومن

التي تركز على الميتافيزيقا قد بلغت نهايتها في واقع الامر مع فلسفة هيجل. وبالتالي فسرت الفلسفة من قبل الماديين الجدليين على انها رؤية عامة الى العالم تمدنا بقاعدة للسلوك ، فكانت المادية الجدلية لديهم الاساس العقائدي لقوة سياسية واقتصادية عالمية ، ترمي الى تحرير القوى العاملة المتمثلة في طبقة البروليتاريا من الاضطهاد والاستغلال التي تعاني منه في ظل الهيمنة البرجوازية على الانظمة السياسية في العالم.

وتستند المادية الجدلية الى اصلين رئيسيين هما : (٢٩)

- الاصل المادي ، الذي يستند الى الفلسفة المادية التي عبرت عنها افكار هيرقليطس وايقور وغيرهم من فلاسفة اليونان ، وصولا الى الافكار المادية التي عبر عنها الفلاسفة في العصر الحديث ، والتي وجدت في بعض المكتشفات العلمية رصيذا لها.

- الجدل الهيجلي الذي كان له تأثيرا بالغا على الفكر المادي الجدلي ، والذي يعد حسب احدهم بمثابة النفس للماديين الجدليين. فقد كان ماركس وهو الاب الروحي للماديين الجدليين مقلدا للمذهب الهيجلي المثالي،

العلمية، التي تتفق وتعاليم العلوم، من حيث ان هذه العلوم تقرر أن الكون حقيقة مادية، وأن الإنسان ليس غريبا عن هذه الحقيقة، وأنه يمكنه معرفتها، ومن ثم تغييرها كما تدل على ذلك النتائج العملية التي توصلت إليها مختلف العلوم.(٣١)

اولا: نظرية المعرفة:

يعتقد انصار المادية الجدلية بان العالم المادي هو العالم الحقيقي الوحيد، وان العقل ليس الا نتاج لعضو مادي هو الدماغ، ويرى ان التعارض بين المادة والوعي لا قيمة له الا في مجال نظرية المعرفة، اما في نظرية الوجود فلا وجود لشيء اخر غير المادة. (٣٢)

يؤكد الماديون ان الانسان وعيا هو نتيجة متأخرة نسبيا بالنسبة للعام المادي. وبما ان الوعي متصل بالمادة اتصالا تاما، فالإنسان يعيش في وسط تحيطه الاشياء المادية من كل صوب ، وعملية التفكير تتم من خلال تأثير الموجودات على الانسان ، وحينما تكون هذه التأثيرات التي تنتقل الى الدماغ مطابقة مع موضوعات العالم الخارجي عندئذ تكون الاحساسات صائبة. يقول انجلز: ان العالم

ثم توفر لهم قواعد للسلوك من جهة اخرى . فإذا أردنا تغيير الواقع سواء كان الطبيعة أو المجتمع فإنه يجب علينا اولاً أن نعرف هذا الواقع، ولكي يعرف الإنسان العالم عليه الرجوع الى العلوم المختلفة. هكذا تتشكل النظرة العلمية في الفلسفة الماركسية أو المادية الجدلية.

ولكن ما الفرق بين (العلم) و (الفلسفة)؟ أو

ليست الفلسفة ماثلة للعلم وفقا للمادية الجدلية؟ والجواب ان الفلسفة من وجهة نظر المادية الجدلية لا تنفصل عن العلوم ولكنها تتميز عنها. إذ أن غرض كل علم من العلوم هو دراسة القوانين المتعلقة بجزء معين من الواقع كما هو الحال في الفيزياء والبيولوجيا وعلم النفس . أما المادية الجدلية فهي تدرس أعم قوانين الكون، وهي القوانين التي تشترك فيها جميع جوانب الواقع سواء منها ما يتعلق بالطبيعة ام بالكائنات الحية ام بالمجتمع . وان ماركس وانجلز، وهما مؤسسا المادية الجدلية لم يبدعا الجدلية من خيالهما. بل إن تقدم العلم هو الذي أتاح لهما اكتشاف أعم القوانين التي تشترك فيها جميع العلوم وصياغتها وهي القوانين التي تعرضها الفلسفة. كما ان المادية الجدلية هي النظرة الوحيدة

العقلي ضروري من اجل تنظيم معطيات التجربة. وان التقدم الحاصل في تلك العلوم يبرهن بشكل واضح على ضعف مواقف القائلين بعدم امكان المعرفة. (٣٦)

ثانيا: المادية الجدلية

كشف (كانت) عن ضرورة تجاوز الفلسفة الدوغمائية (القطعية) التي تدعي البحث عن جواهر الاشياء ، في حين أن دور الفلسفة من وجهة نظره يجب أن تقتصر على البحث في الظاهرة . لذا يجب استبدال الفلسفة الدوغمائية بالفلسفة النقدية. لقد صرح كانت بان التناقض هو الجدار الذي كان يصطدم به كل من يبحث عن الجواهر. وبدل أن يوجه تفكيره نحو بناء منظومة فلسفية جديدة تدعي اكتشاف جوهر الحقيقة، فقد جعل من مسألة التناقض موضوعا مركزيا لبحثه الفلسفي، ذلك لان كانت ظل سجيننا للمنطق الارسطي الذي يعتقد بان التناقض مستحيل التحقق، ولأن جوهر الأشياء يقوم على التناقض، فلذلك خلص كانت إلى هذه النتيجة: وهي استحالة إدراك جوهر الأشياء بواسطة العقل... فالعقل لن يؤدي إلا إلى اللامعقول. هكذا نقد هيجل الفلسفة الكانتية، إذا كان

المادي الملموس حسيا الذي ننتمي نحن اليه، هو الحقيقة الوحيدة... ان وعينا وتفكيرنا، مهما قد يبدو من الحساسية القصوى، هو نتاج للمادة، العضو الجسدي، الدماغ. ان المادة ليست نتاجا للفكر بل ان الفكرة ذاتها ليست سوى اعلى نتاج للمادة. (٣٣)

(وحيث ان المادة هي التي تحدد الوعي ، فان الماركسيين يرون ان المعرفة ينبغي ان ينظر اليها بنظرة واقعية تحترم الوقائع، فالذات العارفة لا تنتج الموضوع المعروف، انما الموضوع يوجد قائما بذاته ومستقلا عن الذات وما هي المعرفة اذن الا نسخ او انعكاس او صور فوتوغرافية للمادة) (٣٤). يقول لينين: ان المادة هي تلك التي يعملها على اعضائنا الحسية تنتج الاحساس؛ المادة هي الحقيقة الموضوعية المعطاة لنا بالاحساس... ان المادة، الطبيعة، الوجود، الجسم الطبيعي - هي الاساس، والروح، الوعي، الاحساس، الكيان النفسي - هي الثانوية. (٣٥)

اما العالم فانه لدى الماديون الجدليون قابل للمعرفة الى اقصى حد ، وان منهج المعرفة الحقيقي للعالم يقوم بالعلوم الطبيعية، المستند الى المعرفة الحسية، وان التفكير

لم يتصور الماديون الجدليون سير التطور بشكل دائري ، بل هو تطور خطي طولي، ولذا ساد الاعتقاد بان سير التطور يفضي الى التقدم نحو الافضل . غير ان (الماركسيين يتصورون هذا التطور على هيئة سلسلة من الطفرات ، فحين تتراكم مجموعة من التغيرات الكمية الصغيرة في داخل وجود الشيء ، فانه ينتج عنها نوع من التوتر ومن الصراع، حتى لتصبح هذه العناصر في لحظة معينة قوية الى درجة تجعلها قادرة على كسر التوازن السابق في وجود الشيء ، وفجأة تظهر كيفية جديدة ابتداء من تلك التغيرات الكمية المتراكمة). (٣٨)

ان كل العملية التطورية تجري من دون سبب محدد سابق من قبل، وهي انما تتم بسبب ضغط العوامل الداخلية ، ان الماديين الجدليين يتصور العالم على هيئة صراعات وصدامات ، وهو يسير بلا غاية او هدف ، وانما يسير سيرا اعمى خاضعا لقوانينه الخاصة. (ولا يوجد شيء ثابت ، فالعالم كله وكافة عناصره فريسة للتطور الجدلي، والقديم يموت وينشأ الجديد دائما وفي كل مكان، فليس هناك من جواهر دائمة ولا من مبادئ خالدة. الذي يبقى

البحث عن جوهر الأشياء، يقودنا دائما، في نهاية المطاف، إلى التناقض، فلماذا إذن يجب الاستنتاج من ذلك عجز العقل، بدل من التأكيد ببرود على الخلاصة التالية، وهي: أن التناقض بالضبط، هو الجوهر النهائي للأشياء.

لقد ثمن ماركس تلميحا عاليا اكتشاف هيكل الجدول. والأساسي في ذلك الاكتشاف، هو موضوعية الجوهر الجدلي.. هو كون العلاقات التناقضية التي هي المحرك للضرورة الجدلية، هي علاقات موضوعية. لكن العيب الحاسم في الجدول الهيكلية- من وجهة نظر ماركس- هو مثاليته. بمعنى أن العلاقات التناقضية الموضوعية ، تتم داخل الفكرة المطلقة. وما يريده ماركس إذن، هو إخراج الجدول من الفكر إلى الواقع، من مجال الفكر الخالص إلى مجال الواقع المادي، هو التأكيد على الطابع المادي الموضوعي للعلاقات الاجتماعية الواقعية، بمعنى أن العلاقات التناقضية الموضوعية او أن الصيرورة الجدلية الموضوعية، يجب ألا تنطلق من الفكرة المطلقة وتتم داخلها، بل على العكس يجب أن تنطلق وتتحرك على أرض الواقع المادي والاجتماعي. (٣٧)

وبيولوجية (الخلايا)، واجتماعية (الصراع الطبقي).

وحده خالدا في الحركة الكونية هو المادة، من حيث هي مادة وقوانين تحولاتها). (٣٩)

٢- قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية: ويقرر ان تطور المادة يتخذ شكل تراكمات كمية تنتقل في مرحلة معينة وبصورة فجائية فتصبح تغيرات كيفية، فالماء تحت تأثير الحرارة الى درجة معينة يتحول الى بخار ، وفي درجة حرارة اخرى الى جليد، فبفعل التراكم الكمي لحرارة الماء، تتغير كيفية الاخير من حالة الى حالة اخرى.

ان القوانين التي تحكم هذا العالم قوانين حتمية، ولكن قد تتدخل اسباب خارجية قد تعرقل سير تلك القوانين، واذا ارتفعنا الى حركة الكون ككل نجد الماديين الجدليين يستبعدون تدخل أي نوع من انواع المصادفة، فمجموع قوانين العالم تسيطر سيطرة كاملة ومن دون استثناء على مجموع صيرورة الكل. (٤٠) وقد وضع انجلز هذه القوانين التي تعبر عن تطور المادة والقواعد التي يخضع لها هذا التطور، وحددها في ثلاث قوانين اساسية هي باختصار: (٤١)

٣- قانون نفي النفي: يقرر ان الشكل الجديد للشيء او للمجتمع في مراحل تطورها لا تعني نفيا تاما للشكل القديم ، بل ان كل جديد يتضمن القديم ، من حيث ان الشيء الجديد يحتوي القديم ثم يتخذ منه اساسا ينطلق منه الى الشكل الجديد . وهذا النفي لا يكون خارجيا بل داخليا كون الظاهرة او أي شيء يتضمن تناقضاته في داخله، وهي التي تحمل شروط بقاءه او زواله.

١- قانون وحدة الازداد : وتقريره ان المادة تتحرك وتتطور اعتمادا على تناقضاتها ، التي تجعلها في صراع دائما. فتطور المادة لا يمكن تفسيره الا على اساس افتراض وجود تناقضات خارجية بين الاشياء، وتناقضات داخلية في قلب الشيء الواحد، تمثل الحالات المختلفة لذلك الشيء في مراحل تطوره. فحركة المادة تتخذ اشكال متعددة ، فيزيائية (حركة الذرات واجزائها)،

ثالثا: المادية التاريخية:

المجتمع معلومات موثوقة، لها صحة الحقائق الموضوعية.

وعليه يمكن ان يصبح علم تاريخ المجتمع، رغم تعقد ظواهر

الحياة الاجتماعية، علما دقيقا لنقل مثل علم الاحياء، علما

قادرا على الاستفادة من قوانين تطور المجتمع للأغراض

العملية.(٤٢)

اعتقد ماركس ان المادية التاريخية التي توصل اليها

لتفسير التاريخ هي نظرية علمية لا تقل في دقتها عن

النظريات العلمية المعروفة في مجال عالم الطبيعة. ويبدو ان

الذي عزز لديه هذا الاعتقاد انه كان حريصا في بحثه على

تطبيق المنهج العلمي عن طريق الملاحظة والاستنباط تماما

كما فعل دارون حتى وصل الى نظريته عن التطور

البيولوجي.

يمثل التاريخ الانساني عددا لا يحصى من الوقائع

والاحداث والعلاقات والخصائص، والسؤال المهم كيف

يمكن الربط منطقيا وواقعا بين كل تلك الجوانب

اللامتناهية؟ ما هو جوهر التاريخ؟ ما هو محركه؟ . هذه

الاسئلة اجاب عنها الكثير ، فقد اجاب هيجل انه الفكرة

المطلقة، ورأى فيور باخ انه الانسان الملموس، وقال فرويد

من البين اهمية توسيع مبادئ المادية الجدلية إلى

ميدان دراسة الحياة الاجتماعية وتاريخ المجتمعات، وعظم

اهمية تطبيق هذه المبادئ على تاريخ المجتمعات. واذا كانت

الروابط بين الظواهر الطبيعية واعتمادها قوانين تطور

الطبيعة، فذلك يؤدي ايضا إلى ان الترابط والاعتماد المتبادل

لظواهر الحياة الاجتماعية هي قوانين تطور المجتمع وليست

اشياء عرضية. وعليه فان الحياة الاجتماعية وتاريخ المجتمع،

لا يبقى مجموعة (احداث طارئة) بل يصبح تأريخ تطور

المجتمع وفقا لقوانين حتمية، وتصبح دراسة تاريخ المجتمع

علما. ولهذا فان النشاطات العملية لحزب البروليتاريا يجب

الا تقوم على اساس الرغبات الطيبة (لأشخاص بارزين)،

ولا على ما يميله (العقل) أو (الاخلاق السامية) الخ.. بل

على قوانين تطور المجتمع وعلى دراسة هذه القوانين. ثم،

اذا كان العالم قابلا للمعرفة وكانت معرفتنا لقوانين تطور

الطبيعة معرفة موثوقة، لها صحة الحقيقة الموضوعية، ينجم

عن هذا ان الحياة الاجتماعية، وتطور المجتمع، هو الاخر

قابل للمعرفة وان المعلومات العلمية بخصوص قوانين تطور

المادية الجدلية بين العلم والفلسفة

المتضررة منه ، والتي تريد تغييره. وتبعاً لذلك يكون التاريخ كـله عبارة عن صراع بين الطبقات.(٤٤)

وقد سار المجتمع الانساني عبر تاريخه الطويل من خلال المراحل التالية: المجتمع البدائي، العبودية، الاقطاع ، الرأسمالية، الاشتراكية والشيوعية. وكل مرحلة تمثل تقدماً بالمقارنة للمرحلة السابقة لها، وكل مرحلة تنتهي بثورة الطبقة المضطهدة والمتضررة. وعلى هذا تكونت الطبقة البرجوازية في ظل النظام الاقطاعي، وتكونت طبقة البروليتاريا في ظل النظام الرأسمالي.(٤٥)

ويذهب الماركسيون الى ان الصراع الطبقي في الدول الرأسمالية سيصل الى ذروته بين الطبقة البرجوازية المستغلة والطبقة العاملة المستغلة، عندها يكون التناقض بين الطبقتين قد وصل الى حد يكون فيه التغير الكيفي للأوضاع الاجتماعية امراً حتمياً على وفق قوانين المادية الجدلية، حينئذ تنور الطبقة العاملة ويكون النصر حليفها.(٤٦)

عد ذلك يقيم العمال النظام الاشتراكي ودولته (دكتاتورية البروليتاريا) على انقراض دكتاتورية الرأسمالية ،

الجنس، وذهب سارتر الى انه المعنى الوجودي. وهكذا ظل كل فيلسوف يدلو بدلوه في هذا المجال. ان الطبيعة المشتركة لكل هؤلاء هي قلب العلاقات الواقعية، بمعنى أن الفيلسوف بدل أن ينطلق في تفسيره للتاريخ، من العلاقات الواقعية الأصلية، التي هي أساس كل شيء، فإنه بالعكس ينطلق من الظواهر.. التعبيرات.. التجليات.. الجوانب.. الفروع، لتفسير التاريخ. إنه يريد أن يفسر الجوهر الأصلي بالتعبير المظهري لذلك الجوهر. والمطلوب التحرر من الوعي الايديولوجي المقلوب، والتي عبر عنها ماركس بالانتقال من دائرة الايديولوجيا الى علم التاريخ او المادية التاريخية ، بقوله: ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم الاجتماعي ، بل وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم. لقد قرر ماركس ان العلاقات التناقضية على صعيد الانتاج المادي هي المحرك الجوهرى للتاريخ.(٤٣)

فظروف الملكية او النظام الاقتصادي بالتعبير الحديث هي التي تحدد مسار التاريخ، فالتاريخ في حقيقة الامر هو صراع دائم حول الامور الاقتصادية بين الطبقة المستفيدة من النظام، وتحاول الحفاظ عليه، وبين الطبقة

الحس والتجربة اذن هي الاساس الذي يتوقف عليه كيان جميع العلوم. فاذا درسنا المسألة دراسة فلسفية نجد ان الاحساس التجريبي لا يعدو كونه مجرد تصور، فمجموع التجارب مهما تنوعت انما تمول الانسان بإدراكات حسية، وما دامت هي تصورات فلا يمكن ان تبرهن على الواقع الموضوعي ودحض المثالية. فيجب علينا ان ننطلق من المذهب العقلي لنشيد على اسسه المفهوم الواقعي للحس والتجربة، فمن خلال إيماننا بوجود مبادئ تصديقية ضرورية في العقل تتمكن من ان تثبت موضوعية احاسيسنا وتجاربنا، اما المادية الجدلية فلا يمكنها اتخاذ هذا الاسلوب، لأنها لا تؤمن بمثل هذه المبادئ من جهة ، ومن جهة اخرى فالديالكتيك يفسر تطورات المادة بتناقضاتها الداخلية، فليس الحوادث في تفسيره محتاجة الى سبب خارجي، وبالتالي يمكن ان تقول المثالية ما قاله الديالكتيك عن الطبيعة فتزعم ان هذه الظواهر في حدوثها وتعاقبها محكومة لقانون نقض النقض الذي يضع رصيد التغير في المحتوى الداخلي، من هنا نعرف ان الديالكتيك لا يحجبنا عن السبب الخارج عن الطبيعة فقط ، بل يحجبنا عن الطبيعة بالذات وعن كل

(ويعلنون صراحة ان اهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها الا بذك كل النظام الاجتماعي القائم بالعنف). (٤٧)

ودولة البروليتاريا ما هي الا مرحلة في طريق تحقيق المجتمع الشيوعي، وعند تحققه يكون المجتمع من دون طبقات . (وما ان تختفي الفوارق وتزول خلال سير التطور، ويصبح كل الانتاج متمركزا في ايدي جمعية واسعة تشمل الامة بأسرها، حتى تفقد السلطة العامة صبغتها السياسية) (٤٨) فنتنتفي الحاجة لوجود السلطة، وتختفي وتزول.

المبحث الخامس: نقد المادية الجدلية

بعد هذه الجولة السريعة في الفلسفة المادية الجدلية، يمكن ان نؤشر على بعض الاثار النقدية الموجهة لها من دون الدخول في التفاصيل، لأنه سيخرجنا عن الاطار المحدد لهذا البحث، وهي باختصار شديد:

اولا: كل مشكلة موضوعية انما يمكن اعتبارها علمية وحلها بطرق العلم التجريبي تتوقف سلفا على صدق التجربة العلمية وموضوعيتها، اما اذا طرحت نفس التجربة لبساط البحث وثار النقاش حول قيمتها الموضوعية، فلا مجال لإثبات ذلك بالرجوع الى التجربة نفسها، فواقعية

المادية الجدلية بين العلم والفلسفة

لا تتقيد بالحدود العلمية للبحث، ذلك ان الخبرة العلمية يجب ان تمارس مهمتها في الحقل العلمي ولا تتجاوزها، ومجال العلوم على اختلافها كما هو ثابت لا يخرج عن اطار الطبيعة، التي يمكن اخضاعها للتجربة والملاحظة الحسية، فليس من صلاحيتها ان تتناول مسائل ما وراء الطبيعة بالبحث والحكم عليها بالنفي والاثبات، وبالرغم من ذلك نرى ان الفلسفة المادية الجدلية تتدخل في هذا اللون من القضايا وتجيب بالنفي على القضية القائلة بان للعالم مبدأ اول وراء الظواهر، الامر الذي يجعلها في موقع المتمرد على الحدود التي وضعتها لنفسها (٥١).

رابعا: تقوم المادية الجدلية على اساس ان الطبيعة واقع موضوعي مادي يحكمه نظام آلي، ولكن هذا المفهوم لم يصمد للكشوفات العلمية الحديثة التي فرضت على العلماء ان يقلبوا نظرياتهم راسا على عقب، وتبين ان الحقل العلمي لا يزال في البداية، وكان من اهم هذه الاكتشافات التعرف على بنية الذرة، وامكان انحلالها الى مكونات غير مادية (كهربائية). فبينما كانت الذرة هي الوحدة المادية الاساسية التي تؤلف الطبيعية، اصبحت مركبة ومن اشياء غير مادية.

شيء خارج الشعور (٤٩)، وبالتالي نقع في المثالية التي سبق وان اعتنقها هيغل ورفضها ماركس.

ثانيا: في مجال نظرية المعرفة يقول الماديون الجدليون بنظريتين مختلفتين، فهم من ناحية يتبنون نظرية المذهب الواقعي الساذج التي تذهب الى استقلال الموضوع عن الذات واعتبار المعرفة مجرد تصوير فوتوغرافي للشيء، ومن ناحية يربطون هذا التصور الواقعي بتصورات برغماتية تنبثق عن نظريتهم بان حاجاتنا الاقتصادية هي التي تحدد وعينا، ويترتب عليه ان لكل طبقة من طبقات المجتمع رؤيتها وفلسفتها الخاصة، ولا مجال الى القول بان هناك فلسفة مستقلة غير متحيزة.

وهاتان النظريتان متجاورتان في الماركسية من دون محاولة جادة للتنسيق فيما بينها. وهنا تقع في التناقض فانه لو كانت الحقيقة تتحدد عن طريق الحاجات المادية فان المعرفة حينئذ لا يمكن ان تكون صورة فوتوغرافية عن الواقع، فالحاجات المادية متغيرة باستمرار الامر الذي يجعل المعارف متغيرة فلا تكون صورة فوتوغرافية للأشياء الواقعية (٥٠).

ثالثا: بالرغم من اصرار المادية الجدلية على الطابع العلمي لفلسفتها ورفضها أي لون من التفكير الميتافيزيقي، نجد انها

مركز دراسات الكوفة : الدراسات التاريخية والفلسفية

للوصول الى الشيوعية التي تذوب فيها السلطة، وفقا لقوانين الديالكتيك القطعية، ولكن واقعها - دولة البروليتاريا- يكشف عن تركيز النشاطات الاقتصادية والثقافية تركيزا شديدا وتوطيد السلطة الى حد يجعل نظرية زوال السلطة نسيا منسيا(٥٣).

سابعاً: ومن التناقضات التي وقع فيها انصار هذه الفلسفة انهم من جهة يدعون ان فلسفتهم فلسفة علمية، ومن ثم يجب ان تكون موضوعية ومحيدة وغير مؤدجلة، فيما نجد انصارها في حقيقة الامر ليسوا باحثين عن الحقيقة الموضوعية، وانما مبشرين ومدافعين عن نظرية يفترض انها علمية الا انها في حقيقة الامر هي نظرية ذات طابع لاهوتي، حيث يسترسل الفيلسوف والرياضي (رسل) في وضع قائمة لمفاهيمها في قبال مثيلاتها من المفاهيم اللاهوتية المعروفة مثل: (ماركس، عامة الشعب، الثورة، عقاب الرأسمالية، الدولة الشيوعية..)، وهي على التوالي (المسيح، الاخيار، الظهور الثاني، جهنم، النعيم الموعود...) (٥٤).

وايضا تغير مفهومنا عن الكتلة وثباتها، حيث بدت كتلة المادة نسبية تختلف باختلاف حركتها، حتى انه قد تتلاشى كتلة جسم ما حين تصل حركته الى سرعة معينة متحولة بشكل كامل الى طاقة. وهكذا بات جليا للفيزيائيين ان المادية قد ماتت وان المفهوم المادي للعالم يتعارض مع العلم والبراهين التجريبية(٥٢).

خامساً: تقوم نظرية المعرفة لدى الماديين الجدليين على اعتبار الوعي صدى او انعكاس للمادة القائمة في الخارج، وبالتالي تتجاهل دور الانسان في عملية المعرفة، فأغفلت ما يسقطه الانسان على الاشياء في معرفته لها من اضافات وفروض، ثم دور التقييم واختيار الصالح او المناسب منها. وهو امر غريب حتى بالنسبة لانصار المادية الجدلية، الذين عدوا الجدل او الديالكتيك انسانيا اولاً واخراً، الامر الذي دفع البعض منهم - وخصوصا المعاصرين- الى نبذ هذه النظرية(٥٣).

سادساً: يبدو ان التناقض بين العقيدة والواقع ظاهر في جوانب من المادية الجدلية. فالعقيدة تعلن ان ديكتاتورية البروليتاريا هي ديكتاتورية مؤقتة، وما هي الا مرحلة

الخاتمة:

٣- على حين كشف (كانت) عن ضرورة مغادرة البحث

في الجواهر، الذي يفضي دائما الى التناقض، الامر الذي

انتهى اليه هيجل في تفسيره للوجود وتطوره، حسب

المنطق الجدلي الديالكتيكي، لكنه ظل سجين الرؤية

المثالية، ما دفع الفيلسوف المادي فيور باخ الى رفضها.

٤- لكن المادية بعثت من جديد في هذا العصر لدى علماء

الطبيعة امثال لامارك ودارون وديدرو وهلباخ

وغيرهم، وكانت النتائج التي توصل اليها دارون قد

فسرت تطور الكائنات وفقا لمبدأ الانتخاب الطبيعي،

ورفضت التفسير الغائي لتطور الطبيعة وجميع الظواهر

والمسببات خارج اطارها .

٥- تأثر ماركس الى حد كبير بالفكر الهيجلي ، لاسيما

جدله، حيث عدّه المعبر الدقيق عن الحقيقة الموضوعية

للطبيعة، وعملية تطورها، كما تأثر بالفكر المادي

لفيور باخ ، الامر الذي جعله يرفض المثالية الهيجلية.

اراد ماركس اخراج الجدل من محور الفكر الى ارض

الواقع، لان السيرورة الجدلية تتحرك على ارض الواقع

المادي والاجتماعي.

في ختام هذا البحث في الفلسفة المادية عبر مراحل تطور

الفكر الانساني ، وصولا الى المادية الجدلية يمكن ان نُؤشر

على مجموعة من النقاط الجديرة بالاهتمام، منها:

١- ظهر المذهب المادي في مراحل التفكير الفلسفي الاولى،

فقد برز بشكل واضح لدى هيرقليطس، الذي ذهب

الى ان مبدأ الخلق ومنتهاه المادة، وهو النار. اما

بروتاجوراس فوجد ان معيار الحقيقة هو الاحساس ،

وهكذا بدت المادة هي كل ما ينطوي عليه الوجود.

فيما ارجع ديمقريطس مجمل الوجود الى الذرات ، بما

فيه الالفة والنفس. ولم يأتي ابيقور بأكثر من ارجاع

العالم الى الذرات ورد المعرفة الى الحس .

٢- اما في العصر الحديث فقد طغت النظرة الالية عن

الطبيعة وتطورها ، وخصوصا عند ديكارت ، كما ان

رؤاه الخاصة بعلم النفس ، كانت مثار اهتمام الماديين

فيما بعد، الا انه لم يتخلى عن التفسير الثنائي، الذي

كان محط انتقاد سبينوزا النازع الى الوحدة، ومن ثم

اقر بان ارادة الله وقوانين الطبيعة ما هي الا شيء واحد.

- ٦- فيما حدد الجلز اطر السيرورة الوجودية بثلاث قوانين هي: قانون وحدة الاضداد ، وقانون تحول التغيرات الكمية الى كيفية، وقانون نفي النفي.
- ٧- تطبق الفلسفة المادية الجدلية قوانين الجدال على التاريخ الانساني، وتنتهي في ذلك الى ضرورة ثورة القوى العاملة (البروليتاريا) وانتصارها على القوى البرجوازية ، وقيام دولتها امرا حتميا حسب قوانين الجدال الديالكتيكية، وهذه الدولة ما هي الا مرحلة في طريق تحقيق المجتمع الشيوعي.
- ٨- هناك الكثير من النقد وجه الى المادية الجدلية من اتجاهات فلسفية مختلفة، فقد نقدت من الفلاسفة العقليين والتجريبيين على حد سواء. ومجمل هذه النقود تؤكد على ان هذه النظرية قد وقعت في تناقضات في مختلف جوانبها سواء ما يتعلق منها بنظرية المعرفة او بالتنظير الفلسفي في مجال الوجود والانسان والمجتمع او في الهوة التي فصلت التنظير الفلسفي عن التطبيق العملي.

الهوامش:

- ١- د. محمد عبد الرحمن مرحبا | مع الفلسفة اليونانية | ص ٨٦
- ٢- د. اميرة حلمي مطر | الفلسفة اليونانية | ص ٦٢
- ٣- د. مصطفى النشار | تاريخ الفلسفة اليونانية | ص ١٣٦
- ٤- د. اميرة حلمي مطر | ص ٦٥
- ٥- م. س | ص ٦٩
- ٦- م. س | ص ٦٧
- ٧- يوسف كرم | تاريخ الفلسفة اليونانية | ص ٥٩-٦٠
- ٨- د. اميرة حلمي مطر | الفلسفة اليونانية | ص ١٠٩-١١٠
- ٩- يوسف كرم | تاريخ الفلسفة اليونانية | ص ٥٠
- ١٠- د. عزت قرني | الفلسفة اليونانية | ص ٧٦-٧٧
- ١١- يوسف كرم | تاريخ الفلسفة اليونانية | ص ٥١-٥٢

المادية الجدلية بين العلم والفلسفة

١٢- م. س/أ ص ٢٩٠

١٣- <http://www.marxists.org/arabic/glossary/people/index.htm>

١٤- يوسف كرم\ تاريخ الفلسفة اليونانية\ ص ٢٩٢-٢٩٣

١٥- د. اميرة حلمي مطر\ الفلسفة اليونانية\ ص ٦٨

١٦- <http://www.marxists.org/arabic/glossary/people/٠٨.htm>

١٧- ديورانت\ قصة الفلسفة\ ص ١٩٠-١٩١

١٨- م. س/أ ٢١٧-٢١٨

١٩- <http://ar.wikipedia.org/wiki>

٢٠- يوسف كرم\ تاريخ الفلسفة الحديثة\ ص ٢٧٥

٢١- د. محمود زقزوق\ تمهيد للفلسفة\ ٢٠٨

٢٢- <http://www.marxists.org/arabic/glossary/people/٠٨.htm>

٢٣- د. محمود زقزوق\ تمهيد للفلسفة\ ص ١٨٦-١٨٧

٢٤- م. س/أ ص ١٨٤

٢٥- تشارلس دارون\ اصل الانواع\ ص ٣٨

٢٦- د. محمد مهران\ مقدمة في الفلسفة المعاصرة\ ص ٨٨

٢٧- <http://www.loommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID=١١٤٨>

٢٨- د. محمود زقزوق\ ص ١٨٤

٢٩- م. س/أ ص ٢٠٧

٣٠- <http://www.ahewar.org/debat/s.asp?aid=٨٨٩٠&t=٤>

٣١- بوليتزرا\ اصول الفلسفة\ ص ٢٧-٢٨-٢٩

٣٢- بوشنسكي\ الفلسفة المعاصرة في اوربا\ ص ٩٥

٣٣- م. س/أ ص ٩٩

٣٤- ستالين\ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية\ ص ١٥

fat٦٦٢@hotmail.com

٣٥- م. س/أ ص ١٦

٣٦- بوشنسكي\ الفلسفة المعاصرة في اوربا\ ص ٩٩

٣٧- عبد السلام المؤذن\ الطبقة العاملة الحديثة والنظرية الماركسية

٣٨- بوشنسكي\ الفلسفة المعاصرة\ ص ٩٦

مركز دراسات الكوفة : الدراسات التاريخية والفلسفية

- ٣٩-م. سا ص٩٦-٩٧
- ٤٠-م. سا ص٩٧
- ٤١- د. يحيى هويدي\ مقدمة في الفلسفة العامة\ص١٨٥
- ٤٢- ستالين\ المادية الديالكتيكي والمادية التاريخية\ص١٨-١٩
- ٤٣- عبد السلام المؤذن\ الطبقة العاملة الحديثة والنظرية الماركسية
- ٤٤- د. محمود زقروق\ ص٢١٥
- ٤٥-م. سا ص٢١٥-٢١٦
- ٤٦- روجيه غارودي\ ما هي الاخلاق الماركسية\ص١٥٧
- ٤٧- ماركس وانجلز\ بيان الحزب الشيوعي\ ص٨٦
- ٤٨-م. سا ص٦٧
- ٤٩- محمد باقر الصدر\ فلسفتنا\ص١٦٩
- ٥٠- د. محمود زقروق\ ص٢٢٤
- ٥١- محمد باقر الصدر\ فلسفتنا\ص١٠٣-١٠٤
- ٥٢-م. سا\ص١٣٢
- ٥٣- يحيى هويدي\ مقدمة في الفلسفة العامة\ص١٩٢.
- ٥٤- روبرت ماكيفر\ تكوين الدولة\ص٣٢٤
- ٥٥- برتراند رسل\ تاريخ الفلسفة الغربية\ ج١٢\ص٩٤

المصادر:

١. ا. م\ بوشنسكي\ الفلسفة المعاصرة في اوربا\ ترجمة د. عزت قرني\ عالم المعرفة\ ١٩٩٢
٢. د. اميرة حلمي مطر\ الفلسفة اليونانية\ دار قباء\ القاهرة\ ١٩٩٨
٣. برتراند رسل\ تاريخ الفلسفة الغربية\ ج٢\ ترجمة د. زكي نجيب محمود\ المصرية العامة للكتاب\ ٢٠١٠
٤. تشارلز دارون\ اصل الانواع\ ترجمة مجدي المليجي\ المجلس الاعلى للثقافة\ ط١\ ٢٠٠٤
٥. جورج بوليتزر وجي بيس وموريس كافين\ اصول الفلسفة\ تعريب شعبان بركات\ منشورات المكتبة العصرية\ صيدا ، بيروت\ ج١\ ص٢٧-٢٨-٢٩

المادية الجدلية بين العلم والفلسفة

٦. روبرت م. ماكيفرا\تكوين الدولة\ترجمة حسن صعب\دار العلم للملايين\ط٤\بيروت\لبنان
٧. روجيه غارودي \ ما هي الاخلاق الماركسية \ ترجمة ماهر لقطينه\ دار الحقيقة بيروت
٨. عبد السلام المؤذن\ الطبقة العاملة الحديثة والنظرية الماركسية\ عيون المقالات\ الدار البيضاء ط١١\١٩٩٠
٩. د. عزت قرني\ الفلسفة اليونانية حتى افلاطون\ جامعة الكويت\١٩٩٣
١٠. كارل ماركس وفردريك انجلز\ البيان الشيوعي\ الشركة اللبنانية للكتاب\ بيروت
١١. د. محمد عبد الرحمن مرحبا\ مع الفلسفة اليونانية\ منشورات عويدات\ بيروت\ ط٣\١٩٨٨
١٢. محمد باقر الصدر\ فلسفتنا\ دار التعارف\ بيروت\ لبنان
١٣. د. محمد مهران و د. محمد مدين\ مقدمة في الفلسفة المعاصرة\ دار قباء\ ٢٠٠٤
١٤. د. محمود حمدي زقزوق\ تمهيد للفلسفة\ دار المعارف \ ط٥ \ ١٩٩٤
١٥. د. يحيى هويدي\ مقدمة في الفلسفة العامة\ دار الثقافة \ ط٩ \ ١٩٨٩\ القاهرة
١٦. د. مصطفى النشار\ تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي\ ج٢\ دار قباء\ ٢٠٠٠
١٧. ول ديورانت\ قصة الفلسفة\ مكتبة المعارف\ بيروت
١٨. يوسف كرم\ تاريخ الفلسفة اليونانية\ لجنة التأليف والترجمة والنشر\ السلسلة الفلسفية
١٩. \ تاريخ الفلسفة الحديثة\ دار المعارف\ ط٥\ القاهرة

مواقع انترنت:

١. <http://www.marxists.org/arabic/glossary/people/index.htm>
٢. [http:// ar.wikipedia.org/wiki/](http://ar.wikipedia.org/wiki/) □
٣. [http:// www.oloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID٤٨](http://www.oloommagazine.com/Articles/ArticleDetails.aspx?ID٤٨)
٤. <http://www.ahewar.org/debat/s.asp?aid=٨٨٩٠&t=٤>
٥. fat٦٦٢@hotmail.com المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية